سورة قريش

بين التراث العربي وفهم المستشرقين

أ . د . عادل عباس النصراوي

جامعة الكوفة / كلية التربية الأساسية

Surat Quraysh between the Arab heritage and the understanding of the Orientalists

Prof. Dr. Adel Abbas Al-Nasrawi

College of Basic Education - University of Kufa

Email: adilalnasrawi58@gmail.com

ملخص البحث

البحث قراءة في سورة قريش يُبيِّن الاختلاف في فهم النص القرآني بين التراث العربي المتمثِّل بالمفسرين والمؤرخين و فهم المستشرقين فكلّ هؤلاء له نظرته الخاصة الى النصوص وقد بدا النصّ المبارك في سورة قريش منسجماً في لغته ومتماسكاً في نظم مفرداته وأحداثه مع ما قبلها وهذه السورة الوحيدة التي ذُكِر فيها اسم قبيلة عربية وذلك لفضلها وتمتّعها بخصال حميدة كثيرة تميّزت فيها من باقي القبائل العربية الأخرى حتى سادت على كل القبائل العربية شرفاً وعزاً وكرامةً وربما كان هذا السبب الذي نزلت فيها القرآن الكريم دون القبائل حتى بلغت الزعامة بينها دينياً وتجارياً .

الكلمات المفتاحية : قريش ، مستشرقين ، البيت ، إيلاف .

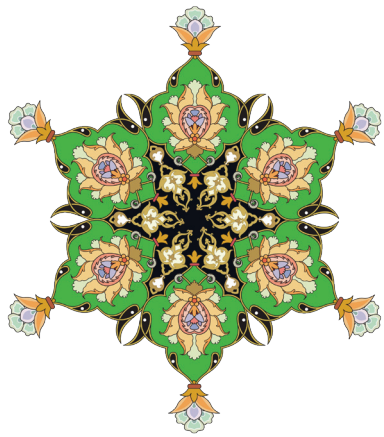

Abstract

The research is a reading in Surat Quraysh that shows the difference in understanding the Qura'n text between the Arab heritage represented by commentators and historians and the understanding of the Orientalists. All of these have their own view of the texts. The blessed text in Surat Quraysh appeared consistent in its language and coherent in its vocabulary and events systems with what preceded it. This is the only surah in which the name of an Arab tribe is mentioned because of its merit and its many virtuous qualities which distinguished it from the rest of the other Arab tribes until it prevailed over all the Arab tribes with honor pride and dignity Perhaps this was the reason for which the Noble Qur'an was revealed to the exclusion of tribes until leadership reached between them religiously and commercially.

Keywords: Quraish, Orientalists, Al-Bait, Elaf .

مدخل عام

تمثِّل كل سورة قرآنية بناءً نصيّاً متكاملاً في نفسه ومنسجماً مع غيره من السور القرآنية من حيث لغة السورة وأحكامها والوقائع التاريخية أو القصص أو غيرها من الأمور الأخرى فهي تشكِّل كياناً دلالياً وبنائياً منسجماً وموحياً الى المتلقي بمختلف العصور بإشعاعات فكرية معنوية ربما تكون غير منظورة في عهود سابقة أو لاحقة وذلك بفعل التركيب وطريقة الإنشاء لهذه السورة أو لغيرها لذلك نجد أنّ القراءات لها متنوّعة من عصر الى عصر ومن بيئة ثقافية الى بيئة ثقافية أخرى ففي كلّ عصر أو بيئة هناك متغيرات على كلّ المستويات الثقافية والعلمية واللغوية والدلالية وهذه المتغيرات تضفي بظلالها على المنظومة الفكرية العاملة في وقتها وهذا الأمر مما يُفضي بالعقل الانساني الى طريقة فهمٍ للنصوص مختلفة من زمان الى زمانٍ من قبل المفسرين أو المستشرقين أو غيرهم فنجد أن رؤى مفسري القرآن الكريم تتنوّع في طريق فهم النص المبارك أما المؤرخون فهم مطبقون على رؤية واحدة من خلال استلهام الواقعة التاريخية التي سبّبت نزول السورة أو الآية أو مجمل القرآن الكريم غير أن المستشرقين قد يبدون أكثر تحرراً من أولئك لارتباطهم ببيئات غريبة عن النص القرآني فضلاً عن المناهج الجديدة التي تأثرت بالثقافة الكنسية أو غيرها وهذا ممّا اَضفى على طريقة الفهم للنصوص اللغوية فسحة جعلتهم أكثر تحرراً من قيود البيئة العربية التي نزل بها القرآن الكريم التي أثرت نوعاً ما على طريقة الفهم لدى العرب أو المسلمين عموماً في فهمهم للنص القرآني .

بنيّة النص القرآني في سورة قريش

يرتبط النصّ ببعضه بصلات تجعل منه نصاً أما أن يكون متماسكاً ومنسجماً مع بعضه أو مفككاً ضعيفاً مهلهلاً وذلك أن النصّ تحكمه قوانين تتعلق بأمور كثيرة وهي التي شُيِّد على أصلها وأساسها وهذه القيم والقوانين تختلف من مؤلفٍ لآخر تبعاً لإمكاناته وقدرته وانسجامه معها فالنصوص تتفاوت قوةً وضعفاً وبقاءً وديمومةً لذا تجد نصاً فيه من الحيوية والقوة ما يُكتب له البقاء والديمومة وتجد آخر ضعيفاً لا يمكن ان يدوم وليس له القابلية

على التعبير عمّا يُريد واضعه لذا لا يستطيع أن يعبر عن الواقع الذي ولد فيه وكذلك قد تجده مفككاً غير متجانس أو متواصل مع بعضه ولعلّ السبب في ذلك يرجع الى مقدار انسجامه مع القوانين الحاكمة لبناء النصّ وتكوينه في حين تجد النصوص المحكمة متناسقة ومنسجمة مع بعضها لأنها استوعبت كل القيم والقواعد المتحكمة في بنية النصّ فبدا منسجماً ومتماسكاً .

هذا الأمر من الصعوبة حصوله في أغلب الأحيان في النصوص البشرية لأنّ هذه النصوص محكومة بثقافة المؤلف وامكاناته العلمية وقابلياته على إنشاء بنية نصيّة سليمة ومعبرة عمّا يُريده المؤلف لذا تجد هذه النصوص متفاوتة في امكاناتها في التعبير عن مضمونها أو سلامة بنيتها .

من خلال الاستقراء الواسع تبيّن أن هناك قيماً مؤثرة في تكوين النص اللغوي وموجهة له ولا يمكن لأي نصّ أن يتبرأ منها فالنصّ كما تشير بعض الدراسات الى أنه ذلك النسيج الذي يوحي بدلالات منها : دقة التنظيم وبراعة الصنع والجهد والقصد والكمال والاستواء الذي يؤدي الى تسلسل الأفكار من خلال توالٍ في الكلمات [1] وهذا الأمر مما يبعث فيه صعوبة في التكوين أو التأليف وذلك لتداخل هذا المفهوم للنصّ مع العلوم الأخرى بوصفه علمياً متداخل التخصصات ولتأثره أيضاً بالدوافع والمناهج التي تقوم عليها هذا العلوم [2] .

إذن عند دراسة نصٍّ ما والكشف عن مضامينه وما يحوي من دلالات – رُبما لا تكون بارزة من ظاهر النص – لابد من ملاحظة الثيمات التي تتعلق بمكوناته وهي :

١. بنية النص وتتمثل بطريقة بناء الوحدات النصيّة المؤلفة لعموم النصّ التي تحقق من خلالها مقدار ترابط هذه الوحدات وانسجامها مع بعضها وطرائق الإحالة

(١) ظ : تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص / عبدالقادر شرشار : ١٨ مدخل الى علم لغة النص ومجالات تطبيقه / محمد الأخضر الصبيحي : ٢٠ .

(٢) ظ : آيات الآخرة – دراسة في ضوء علم اللغة النصّي / د . قاسم شهيد كاظم : ١٨ (اطروحة دكتوراه) .

وتماسك نسيج النص الذي يحقق الوحدة التامة له .

٢. لغة النصّ وتمثل مكونات اللغة والوحدات البنائية لتكوين النص فاللغة في أصل وضعها ألفاظٌ ومعانٍ تنتظم مع بعضها لتكوين القول أو الكلام لأجل التواصل مع المحيط الخارجي للمتكلم ولكن هذه اللغة ستكون فعالة من خلال طريقة نظم هذه المفردات في البنية العامة للنصّ فربما تجد كلمة لا أثر لها من دلالة في تركيب معيّن ولكن تجدها في تركيب آخر زاهرةٍ مشعة بفضل نظمها وحُسن تأليفها مع أخواتها من المفردات الأخرى .

٣. قواعد بناء النصّ، وتتمثل بطريقة تأليف المفردات المبنية على أُسس وقواعد قد تعارف عليها متكلمو اللغة وهي التي نسميها (القواعد النحوية) فهناك قواعد تحكم ذلك التأليف فيكون النص المبني على أصل تلك القواعد ذا معنى أولي أو ساذج لكن المتكلم بفعل براعته في طريقة استعمال هذه القواعد قد يؤدي الى إبراز معانٍ ودلالات أخرى جديدة لم تكن متوافرة في أصل القاعدة وهذا الأمر ممّا يعمل على حضور المؤلف بشكل دائم في النصّ وعدم القدرة على تجاوزه أو إهماله ويكون هذا من خلال تحولات بنية النصّ لأن الخروج عن أصل القاعدة النحوية يؤدي الى احداث تغيرات في بناء الجملة النحوية وهذه بدورها تعمل على اضفاء أو اضافة دلالات غير منظورة في الأصل .

٤. إيحاءات النصّ الظاهرة من خلال طريقة استعمال اللفظة أو المفردة اللغوية على أصل الحقيقة أو المجاز ففي المجاز يُعطى النصّ قابلية الإيحاء بدلالات خارجة عن أصل المعنى للمفردة أو عن المعنى الظاهر الذي يوحيه النصّ من أول قراءة أي يكون النصّ قابلاً للتأويل وهذا ما يجعله يتجاوز عصر إنشائه الى عصور قادمة فيُكتب له البقاء والديمومة بمقدار قوة الإيحاء فيه وهذا مما يقيد المتلقي فلا يكون النصّ منطلقاً لقراءة حرة غير ملتزمة .

٥. ظروف ولادة النصّ ونشأته وهذه الظروف تكون مرة متعلقة بواضع النصّ وفي أخرى بالواقعة الذي ولد فيه النصّ وهذه الظروف تتعانق فيما بينها لتوجيه دلالة النصّ وتأثيره أي ستكون هنالك نسبة تواصليه في هذه الثنائية – واضع النص والواقع – فالمفردة الأقوى في هذه الثنائية يكون لها الأثر في الأخرى وبالتالي ستكون موجهة لها والأخرى منقادة إليها .

هذه الثيمات المذكورة في أعلاه ربما تكون متوافرة كلها في نصّ معيّن وكذلك كل ثيمة منها قد تكون فاعلة في نصٍّ أو تكون ذات أثر ضعيف في نصٍّ آخر وهذا ممّا يجعل النصوص متفاوتة قوةً أو ضعفاً تبعاً لأثر هذه العوامل فالنصوص الكبرى تتوفر فيها هذه الثيمات بقوة فيما تفتقر لها النصوص البسيطة أو الساذجة لذا نجد نصوصاً كُتب لها البقاء منذ العصر الجاهلي وصدر الاسلام الى يومنا هذا من نحو الشعر الجاهلي والنصّ القرآني وشعر باقي العصور العربية الزاهرة فيما نرى نصوصاً أخرى لم يُكتَب لها البقاء حتى في ضمن العصر الذي ولدت فيه .

ولو أخذنا سورة قريش مثالاً لتطبيق هذه الثيمات لوجدنا تناسباً بين هذه السورة مع ما قبلها من سورة الفيل فكلنا السورتين لها وحدات نصيّة متشابهة ومتماسكة مع بعضها حتى أصبحتا نسيجاً بنائياً واحداً فالمعاني في سورة قريش مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بما جاء من معانٍ ودلالات في سورة الفيل بل أن ما في سورة قريش نتاجاً لما في سابقتها فتوفر الأمان والطعام لقريش ما كان إلاّ بعد انهيار سيطرة الحبشة على اليمن بعد فشلها في هدم الكعبة واستباحة مكة فكأن الإيلاف وما نتج عنه خيراً لقريش[1] فَعَظُمَ شأنها بين القبائل العربية عندما هُزِ من الحبشة بإرسال طير الأبابيل فسمّوا (أهل الله) أو سكان الله تعظيماً لهم واعلاءً لشأنهم يقول المستشرق يوري روبين (تمتّعت قريش في عصور ما قبل الاسلام – في الواقع – بالحماية الإلهية التي استندت الى مكانها المقدّسة على أنها « أهل الحرم » أي أهل الأرض المقدسة التي تطوّق مكة والكعبة ولكونهم سكان حرمَ مكة والأوصياء على الكعبة

(١) ظ : محمد في مكة / مونتجمري واط : ٦٦ .

فقد اعتَبر أي اعتداء عليهم انتهاكاً للمحرّمات المقدسة) لذا عدَّ بعض العلماء أَنَّ سورة قريش مع سورة الفيل سورة واحدة .

إذ نقل الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) : (قال : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ و ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ سورة واحدة [١] وروي أنّ أُبيَّ بن كعب لم يفصل بينهما في مصحفه وقال عمرو بن ميمون الأزدي صليتُ المغرب خلف عمر بن الخطاب وقرأ في الأولى ﴿وَٱلتِّينِ﴾ وفي الثانية ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ [٢] وكذلك الأخفش (ت ٢١٥هـ) لم يفصل بينهما)[٣] ونقل ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) أن (هذه السورة – يعنى سورة قريش – مفصولة من التي قبلها في المصحف الإمام كتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم وإن كانت متعلقة بما قبلها كما صرح بذبك محمد بن اسحاق وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم لأنّ المعنى عندهما حبسنا عن مكة والفيل وأهلكنا أهله لإيلاف قريش أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمين)[٤] وقريب من هذا ما نوّه به الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) حين قال (اعلم أنّ الانعام على قسمين أحدهما : دفع الضرر والثاني : جلب النفع . والأول أهم وأقدم ولذلك قالوا : دفع الضرر عن النفس واجب أما جلب النفع فإنّه غير واجب فلهذا السبب بيَّن تعالى نعمةَ دفْع الضَرَر في سورة الفيل ونعمة جلب النفع في هذه السورة ولما تقرَّر أنَّ الإنعام لابُدَّ وأنْ يُقابَل بالشكر والعبودية لا جرمَ لأتْبَعَ ذِكْرَ النعمة بطلب العبودية فقال : ليعبدوا)[٥] فهنا إحالة المعنى في سورة قريش كان إلى سورة الفيل فهذه الإحالة في المعنى والحدث بين السورتين دليلٌ على انسجام النص وتماسكه وهذا ممّا يبعث الى قوة نسيجه ووحدة لحمته وقوتها . حدثاً ونتائج وخاصة ما كان من إخفاء القدسية على مكة والكعبة بعد حادثة الفيل .

(١) مكة قبل الاسلام / فريق من الباحثين . (موضوع / إيلاف قريش : ٢١٨) .
(٢) مجمع البيان / الطبرسي : ١٠ / ٥٤٤ .
(٣) ظ : معاني القرآن / الأخفش : ٢ / ٥٨٥ .
(٤) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير : ٤ / ٥٥٣ .
(٥) مفاتيح الغيب / الفخر الرازي : ٢٢ / ٢٩٨ .

وقد أدرك بعض المستشرقين هذه العلاقة بين السورتين من خلال العلاقة بين الاحداث التاريخية وترابطها فيهما يقول المستشرق يوري روبين : (إنّه بحلول ذلك الوقت من الحملة – أي جملة إبرهة الحبشي – لم تكن مكة معروفة حتى بين القبائل العربية باعتبارها حرماً مقدساً . فيما عدا ذلك كان من المستحيل مُشاركة هذه القبائل في الحملة التي قيل أنّها موجّهٌ ضدَّ الكعبة)[١]وقد رصد المستشرق البريطاني كستر خطورة قبيلتي طيء وكلب على مكة إذ يقول : (وقد كانت هاتان القبيلتان – طيء وكلب – بصورة خاصة أشدّ خطورة على مكة لأنّ أغلبية هاتين القبيلتين ما كانوا يحترمون قداسة مكة والأشهر الحرم)[٢]وبقى خطرهم قائمًا على القوافل التجارية حتى عقد الحلف قال كستر : (وقد يسرّ هذان الحلفان من حلف تميم وكلب (وقناعة) وحلف أسد وطيء (القحطانية) ولقريش في أن نرسل بكل أمن قوافلها وتسيطر على التجارة في هذه الطرق)[٣] .

وقد ذهب هذا المستشرق الى أبعد من ذلك حين درس الخلفية التاريخية لسورة قريش فكان يرى أنه (لم يُعْتَرف بمكة بعدُ على أنّها حرمٌ محميٌّ وكان الأساس الوحيد لحماية قوافل قريش هذه المعاهدات مع القبائل التي كانت نادراً ما تلحظ وبعد هزيمة إبرهة حظيت مكة بالاحترام لأوّل مرة باعتبارها تحت الحماية الإلهية)[٤]، وارتفع شأن قريش بعد الحملة وعلا علواً كبيراً قال المستشرق إميل دير منغم : (تاهت قريش فخراً بما أصاب ابراهة من الدمار ولقُبت قريش بـ(الصناديد) وأضحت مكة مركزاً كبيراً للتجارة والحج[٥] .

ويتضح هذا التماسك النصّي – أيضاً – فيما كان من لغة النص وقواعدها المهيمنة على البنية النصيّة للسورتين وكذلك طريقة استعمال هذه القواعد في إيضاح المعنى المطلوب وكذلك اختيار الألفاظ التي تعبّر عن المراد فمثلاً استعمال لفظة (إيلاف) لم يكن استعمالاً

(١) مكة قبل الإسلام / فريق من الباحثين (موضوع إيلاف قريش / يوري روبين : ٢٢٩ .
(٢) مكة في الدراسات الاستشراقية (موضوع : مكة وصلتها بالقبائل العربية / كستر : ١٩٩ .
(٣) مكة في الدراسات الاستشراقية (موضوع : مكة وصلتها بالقبائل العربية / كستر : ١٩٩ .
(٤) و . ن : ٢٣٤ .
(٥) حياة محمد / إميل در منغم : ٣٥ ظ : مكة في الدراسات الاستشراقية (مكة وصلتها بالقبائل العربية) / كستر : ١٧٧ .

اعتباطياً وذلك أنّ دلالة الإيلاف هو من الإلفة والاعتياد على الاشياء [١] وهو أمرُ مألوف عندهم وليس طارئاً عليهم فضلاً عن احتماله دلالة العهد ولو استعمل لفظة مرادفة أخرى كالعهد أو العصام أو الحبل لما أدّى دلاله الاعتياد والميثاق بل اقتصر على دلالة الميثاق وهذا ما لا يريده النص المبارك فدلالة الاعتياد تعني الأمان الدائم وقد أُكّد هذا المعنى المستشرق روبين حين قال عن إيلاف بأنّ (هذا المصدر يعني إزالة الصعوبات من تنفيذ شيء ما بحيث يمكن أن يُمارس عادةً أو يحسب رغبات المرء)[٢] .

إذن كان لمكان هذه اللفظة أهمية كُبرى ولا تستطيع أي مفردة مرادفة لها أن تحلّ محلها وكذلك باقي المفردات المؤلفة لهذه السورة أو التي قبلها لتعاضد دلالاتها وانسجامها مع بعضها .

ويظهر تماسك النص وانسجام مفرداته مع بعضها من خلال التركيب النحوي للجملة القرآنية فمثلاً كان لتقديم الجار والمجرور في (لإيلاف) على متعلِّقه الفعل (فليعبدوا) أكثر من سبب لأجل إعطاء أكثر من فائدة منها [٣] :

١. أنه لو قال (ليعبدوا ربّ هذا البيت لإيلاف قريش) لاقتضى حذف الفاء ولانمحى المعنى الذي تدل عليه .

٢. ان التقديم وسّع المعنى لتعدد الاحتمالات فهو يحتمل أنه متعلق بالفعل (ليعبدوا) ويحتمل أنه متعلق بفعل مضمر تقديره (اعجبوا) ولو تأخر لتعيّن تعلقه بأحدهما .

٣. إن التقديم قوّى الربط بين هذه السورة وسورة الفيل، فكأنه قال : فجعلهم كعصفٍ مأكول لإيلاف قريش وهذا ما يراه الأخفش أيضاً [٤] .

(١) ظ : لسان العرب / ابن منظور : أَلِف .
(٢) مكة قبل الاسلام / مجموعة من الباحثين : موضوع (إيلاف قريش) : ١٢٢٨ .
(٣) ظ : على طريق التفسير البياني / د . فاضل صالح السامرائي : ١ / ١٠١ .
(٤) ظ / معاني القرآن / الأخفش : ٢ / ٥٨٥ .

٤. وأحسبُ أنّ دلالة اللام في (لإيلاف) انما جاءت بمعنى لأجل أو بسبب وقد أكّد هذا المعنى الزمخشري والطبرسي[١] في حين ذهب غيرهم الى أن الصواب أن اللام لام التعجب كأنه يقول : أعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك[٢] .

لكن المستشرق يوري روبن يذهب الى أنها لام الأمر اعتماداً منه على رواية لعكرمة حيث يقول : (ولكن كما سيتضح أدناه أن حرف الجر « ل » في رواية عكرمة هو لام الأمر)[٣] وهذا مخالفاً لما يراه المستشرق بير كلاند[٤] وعليه فأن دلالة (لأجل) هي الأنسب في الاستعمال وهو ما عليه أغلب المفسرين فإنها تعمل ارتباطاً في نصّ السورة مع التي قبلها نحوياً ودلالياً .

إنّ صيغة التركيب هنا أو في غيرها من السورة المباركة توحي بدلالات أوسع مما هو في ظاهر اللفظ فإن الظاهر لا يسعفنا إلا بدلالة أولية غير قادرة على البوح بكل مضامين النصّ غير أنّ صيغ التركيب الجملي في هذه السورة وفي غيرها من السور القرآنية قد فعّل فيها إشعاعات دلالية غير منظورة في الداخل ممّا جعلت في النصّ إمكانية التأويل المرتبط بهذه القواعد بمعنى أنها تأويل منضبط لا يُبيح للمتلقي إطلاقية المعنى بل يجعله يدور في فلك المؤلف وآرائِه التي مثلها في النصّ .

فضلاً عن ذلك نجد أنّ الخلفية التاريخية لسورة قريش قد التحمت التحاماً قوياً بالخلفية التاريخية لسورة الفيل وذلك أن نتاج الواقعة التاريخية لحملة ابرهة التي ذُكرت في سورة الفيل قد فتحت على قريش أبواب الرحمة والخير والأمان فذكرهم الله تعالى بهذه النعمة في سورة قريش كي يتجهوا الى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام .

ويرى ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) أن اتصال السورتين بالألفاظ كان على مذهب العرب في

(١) ظ : الكشاف / الزمخشري : ٤٠ / ٨٠٦ مجمع البيان / الطبرسي : ١٠ / ٥٤٤ .
(٢) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير : ٤ / ٥٥٣ .
(٣) مكة قبل الاسلام / مجموعة من الباحثين : موضوع (إيلاف قريش / يوري روبن) : ٢١٢ .
(٤) ظ : م . ن : ٢١٢ .

التضمين[١] بمعنى تضمين تداعيات معاني سورة الفيل في سورة قريش لما بينهما من اتصال في الحوادث التاريخية فانسجمت معها البنية اللفظية للسورتين يقول : (فلما قصد أصحاب الفيل الى مكة ليهدموا الكعبة وينقلوا أحجارها الى اليمن فيبنوا به هناك بيتاً ينتقل به الأمر إليهم ويصير العز لهم أهلكهم الله سبحانه لتقيم قريش في الحرم ويجاور البيت فقال يذكر نعمته)[٢] فذكر السورتين تعقيباً لكلامه ومصداقاً لاتصالهما لفظاً ومعنى .

ويرى المستشرق يوري روبين (أنّ هذا التفسير معقول لأنه يقدّم السورة بما يتماشى مع العديد من الآيات القرآنية بحيث تكون قوة الله وفضله وخيره – عادةً ما تكون على نطاق شامل – التي يُستشهد بها هي السبب في تكريس الناس لعبادتهم بشكل حصري الى الله)[٣] في إشارة منه الى أن النصّ القرآني نصٌّ منسجم وأن نزل منجّمًا على رسول الله ﷺ ولعلّ صيغة الترتيب المصحفي للسور القرآنية لم يكن ترتيباً اعتباطياً وانّما كان مبنياً على وفق قاعدة إلهية تضمن هذا الانسجام .

إذن ممّا سبق يبدو أنّ هناك انسجاماً تاماً بين السورتين تجلّى لنا من خلال تتامٍّ الأحداث مع بعضها فضلاً عن الانسجام اللغوي الذي بدا واضحاً من خلال البنيات اللغوية المتماسكة التي عبرت عن اتصال السورتين مع بعضهما لتتامٍّ الأحداث واتساقها تأريخاً ونتيجةً .

هذا الأمر سوف يقودنا الى ضرورة دراسة الإبعاد الدلالية وعلاقتها بالحدث التاريخي وصياغة النص الإلهي الموجّه للواقع العربي بما يراه واضع النصّ المقدس .

الأبعاد الدلالية في سورة قريش وعلاقتها بالحدث التاريخي :

لأجل تسليط ضوء أكثر على سورة قريش لابُد من دراسة التركيب الجملي لهذه السورة وذلك إنّ البنية التركيبة لأي نصٍّ لها تأثير في صياغة المعنى وتوجيه الدلالة التي يريدها

(١) ظ : تأويل مشكل القرآن / ابن قتيبة : ٢٣٥ .
(٢) م . ن : ٢٣٥ .
(٣) مكة قبل الاسلام / مجموعة من الباحثين : موضوع (إيلاف قريش / يوري روبن) :٢١٤ وانظر مصادره رجاءاً .

واضع النص فمن خلالها يستطيع أن يكمل المعنى الذي توخاه من البعد اللغوي أو البعد التاريخي للنصّ وذلك عبر تنظيم المفردات ورصفها وتركيبها بمعنى أن طريقة النظم للمفردات في تركيب نحوي معين لها أثرها في بيان المعنى الذي يريده المؤلف أو يوحي به للمتلقي ولعلّ النصوص العظيمة تتجلى بها هذه الخصيصة بشكل واضح .

ففي سورة قريش الذي يقول تعالى فيها :

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾[1] هنا مفاصل تركيبية مهمة يمكُن من خلالها أن يتضح المعنى للمتلقي من مجمل السورة المباركة بعد أن علمنا ارتباطها بسورة الفيل التي قبلها ففي المفصل الأول يقول الله تعالى ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ فهنا يتعلق المفصل باللام المكسورة ولفظة الإيلاف واللام المكسورة توحي للمتلقي أن ما بعدها متصل بما قبلها من سورة الفيل[2] وقد اختلف المفسرون وكذلك المستشرقون فيها بين دلالتها على الأمر أو التعجب فمنهم من يرى أنها بمعنى (لأجل) أو(لسبب)، وقد أدرج المستشرقون هذه الدلالات اعتماداً منهم على ما جاء في التراث الاسلامي ونقلاً عن عكرمة توفي (١٠٥هـ) ومجاهد (ت ١٠٤هـ) وسعيد بن جبير (ت ٩٥هـ) والخليل وسيبويه وابن قتيبة [3] ولم يخرج المفسرون عن المعاني أعلاه .

فقد ذهب أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ) والأخفش (ت ٢١٦هـ) الى أنّ اللام جاءت بمعنى لأجل أو بسبب قال أبو عبيدة (ومجاز ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ على ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾[4] في حين ذهب الأخفش الى ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾

(١) سورة قريش / الآيات ١ – ٤ .

(٢) ذهب كثير من العلماء ان السورتين مرتبطتين مع بعضهما وقد عدهما بعضهم سورة واحدة .
ظ : معاني القرآن / الفراء : ٣ / ٢٩٣ معاني القرآن / الأخفش : ٢ / ٥٨٥ مجمع البيان / الطبرسي : ١٠ / ٥٤٤ تفسير القرآن العظين / ابن كثير : ٤ / ٥٥٣ .

(٣) مكة قبل الاسلام / مجموعة من الباحثين : موضوع (إيلاف قريش / يوري روبن) : ٢١٢ – ٢١٤

(٤) مجاز القرآن / أبو عبيدة : ٢ / ٣١٢ .

لإيلاف قريش [١] أي بسبب أو لأجل فكانت اللام عندهما اداة وصل فضلًا عن كونها توحي بالسبب أي أنّ ما بعدها كان نتيجة لما قبلها فاتضح هنا مبدأ العلية أي انّ ما قبلها كان علة لما بعدها وسبباً له وهذان العالمان قد قادهما هذا الاستنتاج من التفكير العقلي المبني على السبب والنتيجة لكونهما يميلان الى مذهب الاعتزال وفي هذا الاتجاه سار الفراء وفي الوقت نفسه ضعّف الاتجاه القائل أن اللام تفيد التعجب حين ذكر ها الرأي بقوله : (يقال: إنّه تبارك وتعالى عجَّب فيه ﷺ فقال : أعجب يا محمد لنعم الله تبارك وتعالى على قريش في إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) [٢] فقوله « يُقال « بالمبني للمجهول قد أومأ فيه للمتلقي بضعف هذا الرأي اتجاه الرأي الغالب عنده القائل إنّ اللام بمعنى لأجل أو بسبب .

وهو رأي الخليل وسيبويه فقد نقل الطبرسي قولهما (قال الخليل وسيبويه : ليعبُدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش أي ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة واعترافاً بها)[٣] وهذا يُشير الى أن معناها بسبب أو بفضل .

ويُشير المستشرق روبين الى انّ هذا المعنى معقول فيقول : (ووفقاً للخليل وسيبويه تعني الخير "النعمة" من الله نحو قريش وبسبب هذا الخير كانت قريش مطالبة في الآية (٣) بإظهار امتنانها في عبادة ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾... لأنه يقدم السورة بما يتماشى مع العديد من الآيات القرآنية)[٤] ثم ينتهي الى أن معنى ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ مرادف لـ "نعمتي على قريش" وذلك عندما عدّ أن قريشاً هي موضوع الخير الإلهي وأنها كانت على بينة من ذلك حتى لُقِّب القرشيون بأنهم "أهل الله" أي "شعب الله" قبل الاسلام فضلاً عن ارتباط الإيلاف بالله تعالى[٥] وممّا يدعم هذا الرأي فوز قريش بالمنزلة العالية بين القبائل العربية وهو ما كان من حالها بعد حادثة الفيل وانتصارها على ابرهة الحبشي بفضل عناية الله لهم

(١) معاني القرآن / الأخفش : ٢ / ٥٨٥ .
(٢) معاني القرآن / الفراء : ٣ / ٢٩٣ .
(٣) مجمع البيان / الطبرسي : ١٠ / ٥٤٤ – ٥٤٥ .
(٤) مكة قبل الاسلام / مجموعة من الباحثين : موضوع (إيلاف قريش / يوري روبن) : ٢١٣ .
(٥) ظ : م . ن : ٢١٤ – ٢١٥ .

وللبيت الحرام إذ كانت قريش متمسكة بالبيت الحرام ولكن عندما هاجمهم ابرهة الحبشي خافوا على انفسهم منه ورأوا أن لا قدرة لهم على مواجهته فتركوا مكة وصعدوا الجبال [١] وكان من قبلهم ما كان من زعيم الطائف عندما حط بالقرب منهم هذا المحارب الغاشم فاحتال عليه وأبعد خطره عنهم ووشى بمكة وأهلها لمنافسته قريش يقول ابن حبيب (ت ٢٤٥هـ) : (ثم سار-أي ابرهة الحبشي-حتى نزل بالطائف وقيل له إنّ هنا بيتاً للعرب تعظمه فلما نزل بهم خرج اليه مسعود بن معتب الثقفي وكان منكراً وأهدى له خمراً وزبيباً وأُدماً ثم قال : أيها الملك ؟ أنّ هذا البيت ليس البيت الذي تريده أنّما البيت الأعظم الذي تريده هو الذي صنع أهله ما صنعوا أمامك وإنما نحن في مملكتك فامضِ ! فإذا فرغت رأيت فينا رأيك فمضى وتركه) [٢] فلما دخل مكة لم يجرؤ أحدٌ من أهل مكة مقابلته إلاّ عبدالمطلب بن هاشم فأعجب به ثم سأله عبدالمطلب أن يرُد له إبله[٣] فقال ابرهة : (والله لقد زهتُ فيك بعد عجبٍ بك ! قال عبدالمطلب : وَلِمَ ذاك أيها الملك ! قال : جئت أهدم شرفك وحرمتك فتركت أن تسألني الكف عنها وسألتني ما لك، قال : أمّا والله لحرمتي أعجبَ اليَّ وأعظم عندي من مالي ولكن لحرمتي ربٌ أن شاء أن يمنعها منعها وان تركها فهو أعلم وأن هذه الأبل لي خاصة فأنا أخاف عليها فاعمل فيها)[٤] فما أن خرج منه حتى توجّه الى الكعبة مستنجداً بالله تعالى لحفظ بيته المحرم الذي فيه عزهم وشرفهم فقال يدعو :[٥]

يـــــاربِّ إنَّ الـعـبـدَ ... يـمـنـع رحـلـهُ فـامـنـع رحـالَـك
لا يـغـلـبـنَّ صـلـيـبُـهـم ... ومحـــالُهُـــم ربّي محـالَـك
إن أنـــــت تـتـركـهـم ... وكـعـبـتـنـا فـشيءٌ مـا بـدالـك

(١) المنمق / ابن حبيب : ٧٤ .
(٢) م . ن : ٧٤ .
(٣) ظ : حياة محمد / أميل درمنغم : ٣٤ .
(٤) المنمق / ابن حبيب : ٧٥ .
(٥) م . ن : ٧٦ .

فاستجاب الله دُعاءَهَ فَهِرَم جيش ابرهة شر هزيمة فقال قيس بن الأسلت في ذلك[١] :

مِـــن نِـعَـــم الله أمـــوالُـــنـــا وأبـــنـــاؤُنـــا ولـــديـــنـــا نَـعَـم
ومـــن مَـنِّـــهِ يـــوم فـيـل الحبـو شي إذ كـــلَـــما بـعـثـوه رزم
محـاجـنـهـم تحـــت أقـــرابـــه وقـــد خـــرمـــوا أنـــفـــه فـانـشرم
فـــــولّى سريـــعـــاً لأدراجـــــه وقـــد هـــزمـــوا جمـعـه فـانهـزم

فهكذا نرى الشاعر قد عَدَّ ما وقعَ على جيش إبرهة الحبشي وهزيمته مِن نِعَم الله تعالى ومَنِّهِ وفضله على قريش حتى أصبحوا من أعزّ العرب وأكرمهم وبعدها انتعشت تجاربهم عندما ضَعُف تأثير البحث عليهم فكان الإيلاف على أشدّه بعد ذلك [٢] .

إذن هذا الأمر يدلّل على أن الحدث التاريخي المقترن بواقعة الفيل قد أصبح قرينة كبرى تدعم كون (اللام) في (لإيلاف)دالة على كونها بمعنى (لأجل) أو (لسبب) كون الإيلاف مرتبطاً بالله تعالى[٣] .

فضلاً عن ذلك أن اختيار لفظة (إيلاف) لم يكن اعتباطاً فلم يختر مثلاً ألفاظ الحبل أو السبب أو العصام أو غيرها وهي ألفاظ مرادفة للفظة إيلاف وقد استعملتها العربُ للعهود والمواثيقولكنها تختلف عنها ببعض الدلالات التي يتوافق مع النصّ فربما تؤدّي تلك الألفاظ معنى العهد أو الاتفاق غير أن الإيلاف يحمل معنى مضافاً الى ذلك المعنى وهو الأمان والإجارة والإلفة وديمومتها فالإيلاف هو الميثاق الذي يضمن الأمان الدائم وهذا ما كان من حالة قريش في رحلاتها مع القبائل العربية التي تمرّ بها قوافلهم ومع ملوك الروم والحبشة واليمن وفارس الذين عقدوا معهم الإيلاف .

فالعهد أو الاتفاق التجاري لا يضمن للطرفين وصول البضائع سالمةً في حين كان الإيلاف يضمن هذا الأمر مضافاً إليه الأمان وديمومته وهذا ممّا ضمن لمكة وصول المؤن

(١) م . ن : ٧٩ – ٨٠ .
(٢) ظ : تاريخية الدعوة المحمدية في مكة / هشام جعيط : ١٢٩ .
(٣) مكة قبل الاسلام / فريق من الباحثين (موضوع : إيلاف قريش) / يوري روبين : ٢١٥ .

والغذاء وكل ما يحتاجون إليه بأمان وسلام قال أبو هلال العسكري (حيًّا٤٠٦ هـ) في معنى الإيلاف أنه : (كتاب أمان يؤمنهم بغير حلف)[١] ولذلك يرى كاستر أن الإيلاف هو اتفاقيات كانت قد أُقيمت على أساس مقاسمة الأرباح مع رؤساء القبائل العربية التي تمر بها القوافل مع استخدام رجال القبائل حراساً لها[٢] في حين أرجع بيركلاند الإيلاف الى أنه (حلف يضمن الأمن أو الحماية)[٣] .

لكن لو رجعنا الى معجم العباب الزاخر للصاغاني (ت ٦٥٠هـ) لوجدناه يورد عدداً من المعاني والدلالات لهذا الجذر اللغوي في كلام فأمّا ما يخص موضوع البحث فمنهما معنى الإلفة وَالموضع الذي يألفه الإنسان أو الابل ويأتي كذلك بمعنى الإجازة بالخفارة والاجتماع والوصل والاستئناس[٤] وأرى هذه المعاني قد اجتمعت في الإيلاف بسورة قريش لأن قريشاً قد أحكمت علاقتها مع الملوك واحسنت التعامل مع رؤساء القبائل التي تمر بها قوافلهم التجارية فضلاً عن اجارتهم لضعفاء قريش واصطحابهم في التجارة ومشاركتهم في أموال التجار ولو بالشيء اليسير حتى أصبحت قريش من أغنى القبائل العربية فسيطروا على تجارة الجزيرة العربية بعد أن كانوا ضعفاء لا يقوون على مواجهة عدوهم فضلاً عن فقرهم إذ كانت المؤن وما يحتاجونه يأتيهم بها تجار الدول المجاورة فيما هم لا يقوون على ذلك حتى سن لهم هاشم بن عبد مناف وأخوته الإيلاف مع ملوك الروم والحبشة واليمن وفارس ثم قويت شوكتهم أكثر بعد واقعة الفيل أيام عبدالمطلب بن هاشم فارتفع شأنهم بين العرب اقتصادياً، ودينياً، واجتماعياً، وسياسياً[٥] .

أما المفصل الآخر فهو ما جاء في قوله سبحانه : ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣﴾[٦]

(١) الأوائل / العسكري : ١ / ٢٦ .
(٢) مكة في الدراسات الاستشراقية / دراسة : مكة وصلتها بالقبائل العربية / كاستر : ٧٧ .
(٣) م . ن : ٧٦ .
(٤) ظ : العباب الزاخر / الصاغاني : حرف الفاء – ألف النهاية / ابن الأثير : ١ / ٦٠ .
(٥) سأبين هذه الأدوار في حياة قريش فيما بعد .
(٦) سورة قريش / الآية ٣ .

إذ اختلف العلماء في تخريج الفاء في ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾ فمنهم مَنْ عدّها هنا إنما دخلت لمعنى الشرط وهو رأي الزمخشري إذ يقول (﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾متعلق بقوله ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين فإن قلت : فَلِمِ دخلت الفاء ؟ قلت : لمّا كان في الكلام من معنى الشرط لأن المعنى : أمّا فليعبدوا لإيلافهم على معنى : إنّ نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوا لسائر نعمه فليعبدوا لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة)[1] ومنهم من عدّها زائدة لا تمنع إفادة المعنى قال أبو البقاء العكبري (ت ٦١٦هـ) : (واللام متعلقة بقوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾ أي ليعبدوا الله تعالى من أجل إِلْفهم ولا تمنع الفاء من ذلك)[2] وقوله « ولا تمنع الفاء من ذلك » دليل على زيادتها لأنها لا تغير في المعنى من شيء عند حذفها أو بقائها .

ويرى د. فاضل السامرائي أنها تفيد السبب من ناحيتين : (الأولى كونها على تقدير جواب الشرط والفاء في جواب الشرط تفيد السبب غالباً والأُخرى كون الفاء على اختلاف معانيها فيها معنى السبب في الغالب)[3] .

نعم إنّ المعاني المذكورة هي حاصلة حتماً لكن يمكُن إضافة معنى آخر يتمثل في الأمر لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له غير أنّ هذا الأمر لم يكن أمراً قسرياً وإنما هو أمر بصيغة أكثر ليون وذلك أنّ العبادة لله لا يمكُن أن تكون على وجه القسر والإجبار بقدر ما تكون من خلال الاستئناس بها بقصد أن يكون العبد أكثر أُنساً بربه لذلك لم نجد هذه الصيغة النحوية في قوله : ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾[قُرَيش الآية ٣] على صيغة الشرط الذي فيه إلزام تحقق جواب الشرط من تحقق فعل الشرط فنجد هنا حذف أحد طرفي جمل الشرط وهو ما يسمى بشبه الشرط لكون العبادة لا يشترط فيها علة وسبب بل تصدر عن

(١) الكشاف / الزمخشري : ٤ / ٨٠٦ وأنظر قوله تعالى (وربك فطهر) فقد عدّ الزمخشري الفاء جاءت بمعنى الشرط : ٤ / ٦٤٧ .
(٢) إملاء ما منْ به الرحمن / العكبري : ٢ / ٢٩٥ .
(٣) على طريق التفسير البياني / د.فاضل السامرائي : ١ / ١٠٣ .

إيمان قلبي فيكون إلزاماً نفسياً من قبل العبد اتجاه ربه ولو تحقق وجود جناحي الشرط لانتفى معهما عدم القسر والإلزام في العبادة لذا جاء الأمر مصحوباً بالسهولة واليسر لإيجاب وقوعه لأن العبادة لا تكون قسرية لذا كان الله سبحانه يقول لنبيه محمدﷺ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (١) وهذا المعنى نجده مفهوماً من سياق الآية المباركة وقد نبه ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) الى ذلك فقال : (كما تربط الفَاء الجواب بشرطه كذلك تربط شبه الجواب بشرطه وذلك في نحو « الذي يأتيني فله درهم » وبدخولها فهم ما أراده المتكلم من ترتُّب لزوم الدرهم على الإتيان ولو لم تدخل احتمل ذلك وغيره)(٢) فضلًا عن معنى السببية عموماً في الفاء سواء أكان في الشرط أم في غيره من نحو قوله سبحانه ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ (٣) .

ولعلّ مجيء هذه الدعوة المصحوبة باليسر وعدم القسر في العبادة بسبب ما كان عليه حال قريش في الاسلام الذي يبين مقدار تعلقهم بالله سبحانه رغم وجود الصنم فبعد واقعة الفيل وانهزام إبرهة وقف ابن الاسلت يخاطب قريشاً (٤)

فقوموا فصلّوا ربكم وتمسَّحوا ... بأركانِ هذا البيت بين الأخاشِبِ
فعندكم منه بلاءٌ ومَصْدَقٌ ... غداة أبي مكسُوم هادي الكتائبِ
كتيبةُ بالسهل تمشي ورحله ... على العادقاتِ في رؤوس المناقِبِ
فلما أتاكم نَصْرُ العرشِ رَدَّهم ... جُنودُ المماليك بين ساقٍ وحاجِبِ
فولّوا سِراعاً هاربينَ ولم يَؤُبْ ... إلى أهلِهِ مِلْجَيشِ غيرُ عصائب

فهنا نلمس ايماناً لكن كان للتماثيل عميق أثرها في العقلية العربية آنذاك بوصفها شفيعاً وكانت تدعى ربًّا أو سيداً تقربهم الى الله زلفى (٥) .

(١) سورة العنكبوت / الآية ١٨ .
(٢) مغني اللبيب / ابن هشام : ١ / ٣٣١ .
(٣) سورة الكوثر / الآيتان ٢ – ٣ .
(٤) البحر المحيط / ابو حيان : ٨ / ٧٣٦ .
(٥) جاء ذلك في قوله تعالى ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ .

ولعلّ أول شفيع من هذه الأصنام التماثيل (هبل) الذي جيء به منحوتاً من العقيق الأحمر ويمثل شيخاً كثّ اللحية وضعه عمرو بن لحيّ في بيت الله بوصفه الشفيع الى الله في طلب الغيث والخير والنماء عندما كانت مكة فقيرة فاندفع الناس إليه وانتشرت عبادته من خزاعة الى عدنان ومن ثم بدأت القبائل العدنانية في الجزيرة تنحت لها آلهة من الحجر والخشب تماثل ما في مخيلتهم من الشفعاء حتى بلغ عددها ثلاث مئة وستين صنماً في الكعبة بعدد القبائل العربية[١] واحتفظ هبل بالمقام الأعلى من بينها [٢] وهذا الأمر هو الذي جعل العبادة محصورة برب البيت فقال ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣﴾[قُرَيش الآية ٣] أي خصص الربّ الذي أمرهم الله تعالى بعبادته فحصره برب هذا البيت الماثل أمامهم وهناك اشارة مهمة أخرى ذكرها المستشرق يوري روبن بقوله : (ويبدو ان القرآن يذكر عمداً " البيت " من أجل أم يلمّح الى أصل مكانة قريش كأهل الحرم كانت الكعبة هي من استمدَّت منها قريش مكانتها بين العرب)[٣] .

إذن حقق هذا النصّ المبارك قضيتين مهمتين الأولى تعيين الربّ الذي يُعبُد وهو الله سبحانه وتعالى لا هبل والثانية أهمية البيت الحرام (الكعبة) بالنسبة الى قريش وهي من نَعِم الله عليهم غير ان المستشرق روبين يرى خلاف ذلك فيقول : (نسبت قريش مكانتها المقدسة الى خير إله الكعبة وأشاروا له باسم "هبل" حيث كان تمثاله يقع داخل الكعبة)[٤] معتمداً في ذلك على تلبيتها وتلبية من نسك هبل (لبيك اللهم لبيك إنا لقاح حرمتنا على أسنة الرماح يحسدنا على النجاح)[٥] وكانت تلبية نزار إذا ما أهلّت (لبيك اللهم ! لبيك ! لبيك ! لا شريك لك ! إلاّ شريك هو لك ! تملكه وما ملك !)[٦] فنجد في هذه

(١) ظ : مفهوم الله وانداده عند العرب قبل الاسلام / فريق من الباحثين (موضوع : ديانة المشركين في القرآن / باتريشا كرونا) : ١٥٠ – ١٥١ .
(٢) ظ : الدين في شبه الجزيرة العربية / ابكار السقاف : ٢٧ .
(٣) مكة في الدراسات الاستشراقية / موضوع «(إيلاف قريش) / يوري روبين : ٢٢٢ .
(٤) م . ن : ٢٢٣ .
(٥) المحبر ابن حبيب : ٣١٥ .
(٦) الأصنام / ابن الكلبي : ٧ .

التلبيات نفساً وحدانياً هو إيماناً بالله الخالق ولكنهم بدافع إيمانهم بالمحسوسات تصوّرا إن الله تعالى سورة في مخيلتهم وهذا يُعدُّ مرحلة أولية من الإيمان لأن الانسان آنذاك إذا اراد (استحضار أمر عقلي مجرد وجب أن يضع له سورة خيالية يجسِّمها حتى تكون له تلك السورة الخيالية معينةً على إدراك تلك المعاني العقلية) [١] فيصوّرها بهذه التماثيل التي يصنعها بيده لتكون شريكاً للإله الأوحد (وكان لا يضعن من مكة ظاعن إلاّ احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة فحيثما حلوا وضعوا وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم به وصبابة بالحرم وحباً له)[٢] اعتقاداً منهم أنها تحرسهم ممّا قد يمسهم من أذى يقول إبكار السقاف : (وبهذه المظاهر بدأ يرسخ في العقل العربي هذا اللون من ألوان المعتقد الديني الذي رغم اعترافه بالوحدانية فإنه قد اقام بينه وبين الله هؤلاء الوسطاء الذين عرفهم بالسادة وناداهم « الأرباب « فهو بين ما احتفظ لله بالوحدانية الخالصة فأنه قد جعل الأرباب .... شفعاء الى الله !) [٣] فالوحدانية حالة دينية متأصلة في الجزيرة العربية منذ دعوة النبي إبراهيم ﷺ فقد كان أهل مكة (يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم واسماعيل ﷺ)[٤] .

وممّا يعزِّز هذه الاتجاه في الوحدانية والدعوة الى الله الواحد وإصالتها في القدم لأرض العرب ما جاء في سفر التكوين إذ قال ملك سدوم عند لقائه النبي إبراهيم ﷺ: (لتكن عليك يا إبراهيم بركة الله العلي مالك السماوات والأرض وتبارك الله العلي الذي دفع أعداءك الى يديك) [٥] .

وهذا يدل على أن الإله العلي كان معروفاً عند العرب عامة منذ زمن إبراهيم ﷺ وقد يرد باسم " إيل " إذ جاء في سفر التكوين عندما وصل يعقوب النبي وقومه الى أرض

(١) الدين في شبه الجزيرة العربية / إبكار السقاف : ٢٨ .
(٢) الأصنام / ابن الكلبي : ٦ .
(٣) الدين في شبه الجزيرة العربية / إبكار السقاف : ٢٩ ظ : محمد في مكة / مونتجمري واط : ٨٤ .
(٤) الأصنام / ابن الكلبي : ٦.
(٥) سفر التكوين : ١٤ / ١٩ و ٢٠ .

كنعان : (وشيدّ مذبحاً هناك ودع المكان "بيت إيل" [١] لأن الله تجلى له هناك عندما كان هارباً من إمام أخيه)[٢] فضلًا عن ذلك فقد ورد اسم الإله "ايل" مضافاً الى عدد من أسماء ملوك المعينيين منهم "وقه – إيل" و يصدق "إيل" و "يشع إيل" كما ورد اسم الإله "إيل" أيضاً في بعض أسماء ملوك سبأ منهم "يدع إيل" و "كرب إيل" و "وهب إيل" وهذا يدل على ارتباط النبي إبراهيم ﷺ بالجزيرة العربية وإن الدعوة الى الله الواحد كانت معروفة في جزيرة العرب بصفته " الاله العلي " وإن اضافة اسمه الى أسماء بعض ملوك اليمن دليلاً على أن " إيل عربي الأصل " بمعنى الاله [٣] وقد أيّد هذا التأصيل للفظة «الله سبحانه» المستشرق يوري روبين إذ قال : (لكن مصطلح "الله" في حد ذاته هو أيضاً جاهلي الأصل . كان الله يُعبد من قبل العرب قبل الإسلام باعتباره "الله العلي" وكانت الكعبة تُعرف باسم "بيت الله") [٤]

الخاتمة

توصّل البحث الى عدد من النتائج أجملها بما يأتي :

١. وجود تناسقٍ نصيٍّ كبير بين سورتي الفيل وقريش تتمثّل في الانسجام التام بين آياتها فضلاً عن تماسك النصوص فيهما وكأنّهما سورةٌ واحدة .

٢. وجود تناسق دلالي تمثّل في أنّ سورة قريش كانت امتداداً دلالياً لسورة قريش من خلال تداخل الأحداث بينهما .

٣. اعتمد المستشرقون كثيراً على ما يراه المؤرخون فضلاً عن المفسرين في توجيه النصّ وبيان معانيه وعلاقته بالأحداث التاريخية .

(١) بيت ايل يعني بيت الله .

(٢) سفر التكوين ٣٥ : ٧ .

(٣) ظ : تأريخ الفكر الديني الجاهلي / د . محمد إبراهيم الفيومي : ٣٦٨ .

(٤) مكة قبل الاسلام / فريق من الباحثين (موضوع : إيلاف قريش) / يوري روبين : ٢٢٣ ظ : مفهوم الله وإنداده عند العرب قبل الإسلام / فريق من الباحثين (موضوع : ديانة المشركين في القرآن / باتريشا كرونا) : ١١٦ .

٤. كانت بداية قريش التجارية في الإيلاف بيد هاشم بن عبد مناف وإخوته الثلاثة لكن الانطلاق الأكبر كان بعد هزيمة ابرهة الحبشي في حملته على مكة .

٥. ظاهر حملة ابرهة الحبشي ديني لكنّ الحقيقة كانت دوافعها تجارية .

٦. سيطرة قريش على كلّ مفاصل الحياة التجارية والاقتصادية على الجزيرة العربية .

٧. للصفات التي تميّزت بها قريش أثّرت كثيراً في علوِّ شأنها وشرفها وعزّها .

المصادرو المراجع

١. آيات الآخرة – دراسة في ضوء علم اللغة النصيّ– اطروحة دكتوراه – للباحث – قاسم شهيد كاظم – إشراف أ . د. حيدر جبار عيدان – كلية الآداب – جامعة الكوفة – ١٤٤٢ هـ – ٢٠٢٠ م .

٢. الأصنام – لابن الكلبي – تحقيق الأستاذ زكي باشا – د. ت .

٣. أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) – للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي (٣٥٥ – ٤٣٦ هـ) – تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية – ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧ م .

٤. إمتاع الأسماع بما للنبيّ من الأحوال والحفدة والمتاع – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ) – تحقيق محمد عبد الحميد النميس – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م .

٥. إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن – تأليف أبي البقاء عبد الله بن الحسين عبد الله العكبري (ت ٦١٦ هـ) –مؤسسة الصادق للطباعة والنشر – طهران – مطبعة أمير – الطبعة الثالثة – ١٣٧٩ هـ .

٦. الأوائل – أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت٣٩٥ هـ) – دار البشير – طنطا – الطبعة الأولى – ١٤٠٨ م .

٧. البداية والنهاية – ابن كثير اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء – مكتبة المعارف – بيروت .

٨. تاريخ الفكر الديني الجاهلي – د. محمد ابراهيم الفيومي – دار الجيل – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م .

٩. تاريخية الدعوة المحمدية – هشام جعيط – دار الطليعة – بيروت – الطبعة الثالثة – كانون الثاني ٢٠١٣ م .

١٠. تأويل مشكل القرآن – لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ) – علق عليه ووضع فهارسه إبراهيم شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط١ – ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م

١١. تاريخ اليعقوبي – أحمد بن إسحاق بن وهب ابن واضح اليعقوبي البغدادي(ت ٢٩٢هـ) – علق عليه ووضع حواشيه خليل المنصور – مؤسسة العطار الثقافية – دار الزهراء – ايران – الطبعة الأولى – ١٤٢٩ هـ .

٢١. تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النصّ – عبد القادر شرشار – اتحاد الكتّاب العرب – سوريا – دمشق – د ط – ٢٠٠٦ م .

١٣. تفسير القرآن العظيم - الإمام الجليل الحافظ عماد الدين، أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى سنة ٧٧٤هـ) - بيروت – لبنان – دار المعرفة للطباعة والنشر – ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

١٤. ثمار القلوب في الصفات والمنسوب – عبد الملك أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) – دار المعارف بمصر .

١٥. الحور العين – نشوان بن سعيد الحميري اليمني (ت٥٧٣ هـ) – تحقيق كمال مصطفى – مكتبة الخانجي – القاهرة – ١٩٤٨ م .

١٦. حياة محمد – إميل درمنغم – نقله الى العربية عادل زعيتر – المؤسسة العربية

للدراسات و النشر – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية – ١٩٨٨ م .

١٧. الحيوان – تأليف أبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) – تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – د. ت.

١٨. الدين في شبه الجزيرة العربية – أبكار السقاف – مؤسسة الانتشار العربي – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ٢٠٠٤ م .

١٩. رسائل الجاحظ – لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) – تحقيق عبد السلام محمد هارون – الناشر مكتبة الخانجي بمصر – ط١ – ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

٢٠. الرسائل السياسية – عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥ هـ) – دار ومكتبة الهلال – بيروت .

٢١. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام – محمد بن أحمد تقي الدين أبو الطيب المكي الحسني الفاسي (ت ٨٢٣ هـ) – دار الكتب العلمية – ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م .

٢٢. الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها/ أبو الحسن أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ) – حقّقه وقدّم له مصطفى الشومي – بيروت – لبنان – مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر – ١٣٨٢هـ – ١٩٦٣م.

٢٣. صفوة الصفوة

٢٤. العباب الزاخر واللباب الفاخر/ تأليف الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني (٥٧٧–٦٥٠ هـ) – تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين – دار الرشيد للنشر – وزارة الثقافة والإعلام – الجمهورية العراقية – ١٩٨١ م .

٢٥. على طريق التفسير البياني – د. فاضل صالح السامرائي – النشر العلمي – جامعة الشارقة – ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م .

٢٦. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي(ت٥٣٨هـ)، تحقيق د. عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٢٧. مجاز القرآن، صنعة أبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي(ت٢١٠هـ)، عارضه بأصوله وعلّق عليه د. محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م

٢٨. مجمع البيان في تفسر القرآن، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٧٩هـ.

٢٩. المحبر – العلّامة الأخباري النسابة أبو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري – اعتنى بتصحيحه الدكتورة إيلزه ليختن شتيتر– منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت .

٣٠. محمد في مكة – و. مونتجمري وات – ترجمة عبد الرحمن الشيخ و حسين عيسى – د. احمد شلبي – الهيئة المصرية للكتاب – ٢٠٠٢ م .

٣١. مدخل الى علم لغة النصّ ومجالات تطبيقه – محمد الأخضر الصبيحي – الدار العربية للعلوم – ناشرون – منشورات الاختلاف – الجزائر – ٢٠٠٨ م .

٣٢. معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء(ت٢٠٧هـ)، تحقيق احمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، دار السرور، (د.ت).

٣٣. معاني القرآن، أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط(ت٢١٥هـ)، تحقيق هدى محمد قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٣٤. معاني النحو، د. فاضل السامرائي، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٣٥. مفاتيح الغيب – ابو عبد الله محمد بن عمر التيمي الملقب بفخر الدين الرازي

خطيب الري (ت٦٠٦ هـ) – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٤٢٠ هـ .

٣٦. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، منشورات الشريف الرضي، ساعدت جامعة بغداد على نشره.

٣٧. مفهوم الله وأنداده عند العرب قبل الإسلام – ترجمه عن الانكليزية هشام شامية – المركز الأكاديمي للأبحاث – العراق – تورنتو – كندا – بيروت – الطبعة الأولى – ٢٠٢٠ م .

٣٨. مكة في الدراسات الاستشراقية – المستشرق الأب البلجيكي لامنس المستشرق البريطاني البروفسور كستر – المركز الأكاديمي للأبحاث – العراق – تورنتو – كندا بيروت – الطبعة الأولى – ٢٠١٤ م .

٣٩. مكة قبل الإسلام – فريق من الباحثين – ترجمه عن الانكليزية هشام شامية – المركز الأكاديمي للأبحاث – بيروت – الطبعة الأولى – ٢٠١٩ م .

٤٠. المنمق في أخبار قريش – لمحمد بن حبيب البغدادي (٢٤٥ هـ – ٨٥٩م) – صححه وعلّق عليه خورشيد أحمد فاروق – عالم الكتب – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

٤١. نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب – تأليف أبي سعيد الأندلسي (٦١٠هـ-٦٨٥هـ) – تحقيق د. نصرت عبد الرحمن – مكتبة الأقصى – الطابعون : جمعية عمال المطابع التعاونية – عمان – الأردن .

٤٢. نهاية الإرب في فنون العرب – أحمد بن عبد الوهاب شهاب الدين النويري (ت ٧٣٣ هـ) – دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٤٢٣ هـ .